

العلاقات الثقافية بين أباضية جربة وأباضية المغرب الأوسط في القرنين الرابع والخامس للهجرة

مسعود مزهودي

قال أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي : " العلم كثير من أن يحصى، ولكن خذوا من كلّ شيء أحسنه ، وتعلّموا العلم قبل أن يرتفع ، وارتفاعه ذهاب أهله " ⁽¹⁾. وقال أبو القاسم يزيد بن مخلد - وهو من علماء الحامة ، عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي : " لو علمت مكان مسألة أستفيدها من فاتني بها لشددت إليها رحلي في مشرق أو مغرب ، ولا أخشى أن يعذبني الله إلا على الجهل " ⁽²⁾. هذه مجموعة من النصائح قدّمها أبو الربيع (471 هـ) وأبو القاسم للطلبة يحثّانهم فيها على أخذ العلم من مناهله ، والإمام بمختلف فنونه . وهذه النصائح كأنّ يقدمها غيرهما من شيوخ العزابة في العصور الوسطى . فمنذ أن انتقل الأباضية من إمارة الظهور إلى إمارة

(1) أنظر : السير ، المطبعة العلمية ، تونس ، (طبعة حجرية) ، ص 50 .

(2) عوض محمد خليفات : النظم الاجتماعية والتربوية الأباضية في شمال إفريقيا في مرحلة الكتمان ، عمّان 1982 ، ص 22 .

الكتمان⁽³⁾ انتهج شيوخهم استراتيجية تعتمد على تنظيم الحلقات العلمية في مواطنهم رغبة منهم في الحفاظ على استمرارية المذهب ، بعد أن زالت دولتهم في تاهرت على يد الشيعة سنة 296 هـ (909 م) .

ونظرا لاهتمام الأباضية - كغيرهم من المسلمين - بالناحية الفكرية ارتأينا أن يكون موضوع هذه الدراسة : العلاقات الثقافية بين أباضية جزيرة جربة وأباضية المغرب الأوسط في القرنين الرابع والخامس للهجرة (العاشر والحادي عشر الميلادي) . ونعتقد أن هذه الفترة وهذا الموضوع لم يحظيا بدراسات علمية أكاديمية رغم أهميتهما .

ولحسن الحظ أن الزمن حفظ لنا ما كتبه الأباضية من مؤلفات تاريخية وفقهية أغلبها مازال مخطوطا ، موزعا بين المكتبات الخاصة في كل من مكتبة القطب ببني يسقن بغارداية (الجزائر) ومكتبة معهد الحياة بالقرارة ، والمكتبة البارونية بجزيرة جربة ، وبجبل نفوسة . وسنحاول في هذه الدراسة أن نبين طبيعة هذه العلاقات من خلال الروايات المتناثرة بين ورقات المخطوطات وصفحات المصادر المطبوعة .

ومن نافلة القول أن نتحدث قليلا عن كيفية تغلغل المذهب الأباضي في الجزيرة . فالمصادر تتفق على أن المذهب انتقل إليها من طرابلس عندما تمكن الداعية سلمة بن سعد ومن بعده حملة العلم الخمسة⁽⁴⁾ من نشره بين نفوسة وزواغة وهوارة ومزاتة ، وغيرها . وانتشر بفضل

(3) مراحل الإمامة عند الأباضية هي كالتالي : مرحلة الكتمان عندما يكونوا في حالة ضعف إمامة الدفاع عندما يدخلون في قتال ، إمامة الظهور عندما يتمكنوا من تأسيس دولة .

(4) حملة العلم الخمسة أو حملة العلم المغاربة هم أعضاء البعثة التي أرسلها الداعية سلمة بن سعد إلى البصرة للتللمذ على إمام المذهب أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وتكوّنت من : عبد الرحمان بن رستم ، عاصم بن جميل السدراتي ، اسماعيل بن درار الغدامسي ، أبو الخطاب عبيد الأعلى بن السمع المعافري ، وأبي داود "القبلي" انفزاوي . أنظر : الشماخي : السير ، طبعة حجرية ، قسنطينة (د . ت) ، ص 123 - 124 .

الدّعاة . الذين استغلّوا الظروف السياسية والاجتماعية التي كان يمرّ بها المغرب الإسلامي . انتشارا واسعا في كل من جرجيس وورغمّة ومطماطة ونفزاوة وبلاد الجريد وجربة (5) .

كما انتشر في القيروان خاصّة بعد أن استولى عليها الأباضية بزعامة أبي الخطّاب عبد الأعلى بن السّمح المعافري (6) تلبية لنجدة القيروانيين بطرد قبيلة ورفجومة الصفريّة . فابن سلام يذكر أنّ مفتيين على رأي المذهب الأباضي كانوا بالقيروان في النّصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وهم : أبو عبد الله ، سعيد الحداي ، وأبو سعيد عربي ، وحاتر أبي القدير مهراني ، وسليمان بن جسّاس ، ويوسف الفّتاح ، وغيرهم . وأغلب هؤلاء كانت لهم حلقات علمية (7) .

وعرفت جزيرة جربة هي الأخرى بعلماء أجلاء تتحدّث عنهم المصادر كثيرا ، وتورد المصادر الفقهيّة فتاويهم . وكانت جربة تابعة للدولة الرّستمية في المغرب الأوسط ، شأنها في ذلك شأن جبل نفوسة وبلاد الجريد . وكان ارتباطها بالإمامة ارتباطا روحيا أكثر مما ترتبط بها ماديا . فقد كان سكان الجزيرة من الأباضيّة يختارون من يتولى تسيير شؤونهم ، فيرسلون باسمه إلى تاهرت فيأتي تعيينه عليهم . ولما أسقطت الدولة استمرّت العلاقة الرّوحية التي تجمعهم بأباضية المغرب الأوسط .

(5) علي يحيي معمر : الأباضية في تونس ، دار الثقافة ، بيروت 1966 ، ص 48 .

(6) هو أبو الخطّاب عبد الأعلى بن السّمح المعافري الذي أسّس إمارة اباضية في طرابلس (140 - 144 هـ) (757 - 761 م) ، واستولى على القيروان بإخراجه لقبيلة ورفجومة الصفريّة منها .

أنظر : ابن خلدون : كتاب العبر ، القاهرة 1957 ، مج 11 ص 224 .

Tadeusz Lewick : La répartition géographique des groupements Ibadites dans l'Afrique du moyen âge, Rocznik orientalistyczny t. 21, 1957, p 308 .

(7) ابن سلام : الإسلام وتاريخه من وجهة نظر أباضيّة ، تحقيق ر . ف . شفارتز وسالم بن يعقوب ، دار إقرا ، ط 1 ، بيروت 1985 ، ص 158 - 159 .

وقد حاولوا في العديد من المرات إحياء إمامة الظهور ، ولكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل ، على الرغم من الثورات الخطيرة التي فجروها في المنطقة كثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني ، وثورة هوارة . وهي الثورات التي فتت في عضدهم ، رغم الانتصارات الجزئية التي أحرزوها .

ونتيجة لهذه الهزائم المتتالية فكّر زعمائهم في ضرورة انتهاج أسلوب جديد غير أسلوب القوة ، فعادوا إلى الكتمان ، وعملوا على إقامة المجالس والمدارس في سرية تامة ، متبعين سنة إمامهم أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي في البصرة ، عندما كان يعلم الطلبة . واختاروا الغيران كمراكز للتعليم .

ونشطت الحركة الثقافية خاصة عندما أسّس أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي نظام العزابة مع بداية القرن الخامس الهجري . وأصبح عمل المجالس لا يقتصر على التعليم ، وإلقاء الخطب والمواعظ والدعوة إلى المحافظة على مبادئ المذهب بل تعدتها إلى تأليف الكتب ، خاصة الفقهية ونسخها . وصار الإخوان يتبادلون هذه المؤلفات ليستفيد منها كل مرید في مختلف مدن المغرب الإسلامي . وقد تفرّغ لهذه المهمة مشايخ الإباضية وعزّابتهم في جربة وجبل نفوسة ، وبلاد الجريد ووارجلان ⁽⁸⁾ .

وكان أعظم وأهم تأليف ظهر في هذه الفترة هو " ديوان الأشياخ " الذي اشترك في تأليفه عدد من العلماء الأجلاء الذين كانوا يجتمعون في غار " أمجماج " بجربة . وتذكر المصادر أنّ أبا عمران موسى بن زكريا المزاتي الدمري كان السبب في تأليفه ، والتكفل بكتابة أجزائه . يتألف هذا السفر الضخم من تسعة أجزاء كلّها في السند الأباضي جزء خاص

(8) عوض خلفيات : النظم الاجتماعية ، ص 22 .

بالطهارات ، وجزء في الصلاة ، واختصت الأجزاء الباقية في الصّوم والزكاة والحج والأحكام والإيمان . ويسمى هذا الديوان كذلك باسم " ديوان الغار " . وهذا الديوان غير الديوان الضخم المعروف بـ " ديوان العزابة " والذي يعرف أيضا بـ " نوازل نفوسة " ⁽⁹⁾ أمّا عن مؤلفي هذا الديوان فهم :

- 1 . أبو عمران موسى بن زكريا ،
- 2 . جابر بن سدارم ،
- 3 . كباب بن مصلح ،
- 4 . أبو مجبر المزاتي ،
- 5 . أبو عمرو التّميلي ،
- 6 . عبد الله بن مانوح اللّماني ،
- 7 . أبو يحيى زكريا بن جرنان النفوسي ⁽¹⁰⁾ .

هذا وتجدر الإشارة إلى أنّ تأليف هذه الموسوعة الفقهيّة لم يكن القصد منه تفقيه أباضية الجزيرة فقط بل أباضية المغرب الإسلامي ككل . فسرعان ما نسخت ، وأصبح يعتمد عليها الأباضية في المغرب الأوسط وبلاد الجريد وجبل نفوسة . وكانت هذه الموسوعة بحق ثمرة الحركة العلمية التي شهدتها الجزيرة ، والتي تزعمها الأباضية الوهبية لدحض آراء مخالفيهم من النكارية . فالصراع المذهبي بينهما كان له دور كبير في ازدهار العلم ، وكثرة حلقات التدريس . فالمصادر تحدّثنا عن تنظيم حلقات التدريس مما يوحي بأنّ الجزيرة عرفت في تلك الفترة حركة

(9) مسعود مزهودي : الأباضية في المغرب الأوسط (296 - 442 م) رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة 1988 ، ص 230 .

(10) أبو العباس الدرجيني : طبقات المشايخ بالمغرب ، تحقيق إبراهيم طلاي ، مطبعة البعث قسنطينة (د . ت) ج 2 ص 409 .

علمية نشيطة . فقد كانت لأبي مسوريسجا بن يوجين اليراسني (اليهراسني) حلقة علمية يقوم هو شخصيا بالإنفاق على طلبتها ⁽¹¹⁾ . وامتازت حلقاته بالمناظرات بين الوهبة والنكارية . وكان وهبية المغرب الأوسط وجبل نفوسة ينصرون إخوانهم من الوهبة في الجزيرة ⁽¹²⁾ .

كما اشتهر فيها أبو صالح بكر بن قاسم الذي يصفه الدرجيني بقوله : " كان أحد من يوصف بالإجتهد والتصميم " ⁽¹³⁾ . ومنهم كذلك أبو موسى عيسى بن السمح الزواغي " شيخ أهل الإخلاص والتقوى المعتمد على قوله في الفتوى ، والمتقدم في فنون العلم " ⁽¹⁴⁾ .

وبرز من بني يهراسن - سكان الجزيرة - علماء نبغوا في الفقه مثل : أبو محمد ويسلان ، وأبو زكريا بن يحيى . وقد وفد إليهم الطلاب من كل جهة . فكان أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي صاحب كتاب السير ، ويعقوب بن يعدل ، ومصالة بن يحيى من خريجي حلقة أبي محمد ويسلان ⁽¹⁵⁾ .

كما تأسست مدارس كثيرة على نفقة العلماء ورعايتهم . فقد كان أبو زكريا فصيل بن أبي مسور يقوم بالتدريس ، وفي نفس الوقت كان يجلب العلماء الى مدرسته ، وينفق عليهم من ماله الخاص . كما ينفق على

(11) نفس المصدر ، ج 2 ص 336 .

(12) فرحات الجعبري : نظام العزابة عند الأباضية الوهبة في جربة ، المطبعة العصرية ، تونس 1975 ، ص 79 .

(13) الدرجيني : المصدر السابق ، ج 2 ص 353 .

(14) المصدر نفسه ص 365 .

(15) أبو زكريا : كتاب السيرة وأخبار الأئمة . تحقيق عبد الرحمان ايوب ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1985 ، ص 269 .

تلاميذه بأن يوفّر لهم المأكل والمسكن ، خاصّة وأنّ أغلبهم غرباء على الجزيرة ⁽¹⁶⁾ .

وعرف أبو عمرو النميلي بعلمه الغزير . فكان ضمن مجموعة العلماء الذين كانوا يسيّرون شؤون الجزيرة ، ويسهرون على أمنها واستقرارها . واشتهر كذلك أبو الخطاب عبد السلام بن منظور المزاتي ، الذي كان تلميذا لأبي عبد الله محمد بن بكر . وقد انتقل رفقة شيخه الى منطقة " أريخ " في المغرب الأوسط ، وأصبح ساعده الأيمن في ترتيب وتنظيم حلقات العلم . ثم عاد إلى جربة ، واستقر بها يعلم ويوجّه ، ثم التحق بجبل نفوسة ، ومنه إلى قلعة درجين . وفي الأخير عاد إلى " أجلو " قرب أريخ ⁽¹⁷⁾ .

وكان تبادل الزيارات بين المشايخ سنّة حميدة حافظت عليها الجماعات الأباضية إلى وقتنا الحالي . ففي الفترة التي نؤرّخ لها نجد العديد من الشّواهد التي تؤكّد ما قلناه . فقد غادر وفد من علماء جربة متجها إلى المغرب الأوسط فيه أبو الرّبيع سليمان بن يخلف ، حيث نزلوا بـ " أسوف " فمكثوا فيها مدّة من الزّمن ثم ارتحلوا إلى " وارجلان " ، واجتمعوا مع مشائخها وطلبتها . ويبدو أنّ هذا الوفد كان كبير العدد حتى قال قائل : " لم يجتمع أهل الدّعوة من الأخيار مثلما اجتمعت في هذه المرّة من البلدان " ⁽¹⁸⁾ .

وفي كل هذه الزيارات كانت تلقى دروس المواعظ والفقّه والتّفسير . فمسجد أبي صالح جنون بن مريان في وارجلان كان منبرا

(16) علي يحيي معمر : الأباضية في تونس ، ص 107 .

(17) المصدر نفسه ص 109 - 115 .

(18) أبو زكريا : كتاب السيرة ، ص 269 .

للعلم والنقاش . وكان أبو صالح يتكفل بكلّ عالم زائر طيلة إقامته بالمدينة مثلما حدث مع أبي نوح سعيد بن زنجيل عندما قدم إلى وارجلان ، حيث أجرى عليه الأرزاق حتى يتفرغ لحلقة الدّرس . فكانت جماعة وارجلان تجتمع عنده بمسجد " جنون " ، فمنهم المستفيد من علمه ومنهم المتبرّك بمشاهدته ، ومنهم المشارك فيها يعرض من أمور دنياه ودينه ⁽¹⁹⁾ .

وتجدر الإشارة إلى أنّ موسم الحجّ كان فرصة للمشائخ في المغرب الأوسط لزيارة إخوانهم من أهل الدّعوة في بلاد الجريد وجربة وجبل نفوسة . فقد ذكر أبو زكريا أنّ قافلة من الحجّاج فيها سليمان بن موسى الزلفيني وعبد السلام بن عمران النكسي ومحمد بن عيسى بن ابراهيم عرجوا على الجزيرة أثناء عودتهم من الحجّ ، وأقاموا بها أيّاما يستفيدون من علم مشايخ الجزيرة ⁽²⁰⁾ . وهذا وفد آخر من وارجلان يرأسه عمران بن زيري ينتقل إلى جربة في زمن أبي زكريا فصيل بن أبي مسور لنفس الغرض ⁽²¹⁾ .

وهكذا ظلّ الإتصال الثقافي بين المنطقتين تارة يكون كثيفا وتارة ضعيفا تبعا للظروف الأمنية . وقد حاول العلماء في هذه المرحلة التي نورّخ لها ، وفي مختلف مناطق المغرب العربي أن يوحدوا التعليم بينهم . وكانت نفوسة سبّاقة في هذا الميدان ، فكان مشايخها ينتقلون تارة إلى جربة وتارة أخرى إلى وارجلان ، وأحيانا إلى وادي بني ميزاب . فعندما انتقل الأباضية من وارجلان إلى وادي ميزاب مع بداية

(19) عمرو خليفة النامي : ملامح عن الحركة العلمية بوارجلان ونواحيها منذ انتهاء الدّولة الرّستمية حتى أواخر القرن السادس الهجري ، الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي ، وارجلان ، الأصاله عدد 42 - 43 سنة 1977 ، مطبعة البعث ، قسنطينة 1977 ، ص 19 .

(20) أبو زكريا : كتاب السّيرة ، ص 273 .

(21) الجعيري : نظام العزابة ، ص 179 .

القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) جاءت وفود من جربة أغلبهم من أهل العلم . وهناك في الوقت الحاضر عائلات كثيرة لازالت تحتفظ بنسبها مثل : آل الشيخ عمي سعيد بن علي الجربي في غرداية ، وعائلة آل ويرو من مليكة بجربة ، مثلما هو الشأن لآل بارون من نفوسة بجربة . وكان أباضية وادي ميزاب يعتمدون على مؤلفات إخوانهم الجريين . وكانت قراهم حافلة بدور الضيافة المخصصة للوافدين من كل المناطق . وقد أوجد نظام العزابة أوقافا دائمة للتكفل بهم⁽²²⁾ .

وفي العديد من المرات نجد أباضية المغرب الأوسط يستنجدون بإخوانهم في جربة ونفوسة لإمدادهم بالعلماء والفقهاء ، والشواهد كثيرة في مصادرهم . ومن مظاهر التبادل الثقافي كذلك قيام علماء وادي ميزاب باستنساخ المخطوطات الجربية ، ونشرها بين مختلف مواطن الأباضية للاستفادة منها ، وهذه العملية مازالت مستمرة إلى يومنا هذا .

ومهما يكن من أمر فإنّ العلاقات الثقافية بين أباضية جزيرة جربة وأباضية المغرب الأوسط كانت علاقات وطيدة . وكان الزيارات جماعية حتى أننا نجد في المصادر تردد كثيرا عبارة " سنة الزيارة " . والدليل على كثرة الزيارات ما رواه الوسياني حيث قال : " قال أبو الربيع طلعتنا مع أبي عبد الله إلى ورجلان زائرين في جماعة كثيرة ، وفينا قبائل أهل الدعوة بأجمالهم حتى جعل ببعض الطريق أبو عبد الله (محمد بن بكر) على كل قبيلة منهم عريفا وسفيرا يرعاهم ويتفقد أمورهم خوفا مما يحدثون في وارجلان⁽²³⁾ . وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الزيارات كان

(22) - علي يحيى معمر : الأباضية في الجزائر ، مكتبة وهبة ، ط 1 ، القاهرة 1979 ، ص 306 . 308 .

حمو محمد عيسى النوري : دور المزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا ، دار الكروان ، باريس 1984 ، ص 60 . 63 .

(23) - الوسياني : السير (مخطوط) ج 2 ، ورقة 321 .

يترأسها العزّابة ، يدورون فيها على الأحياء يعلمون ويفقهون وينهون عن المنكر ، ويجمعون الصّدقات والتّبرّعات لتمويل نظام العزّابة (24).

ومن مظاهر التّبادل الثقافي كذلك المراسلات التي تتم بين العلماء . وأغلب هذه الرسائل كانت تحمل أسئلة يطلب فيها صاحبها فتاوي . وتكثر هذه الرّسائل خاصّة إذا وقع خلاف حول مسألة ما فيتم الاتصال بأغلب وجوه الأباضيّة .

وفي الأخير نقول إنّ موضوع العلاقات الثقافية بين أباضيّة جربة وأباضيّة المغرب الأوسط يحتاج إلى دراسة علمية أكاديمية وافية . وما هذا الموضوع إلّا للفت انتباه الباحثين المهتمين بهذا الميدان .

(24) الشّمّاخي : السّير ، ص 407 ، أبو زكريا : كتاي السّيرة ، ص 357 .